إشكالات التّرجمة في سياق ما بعد الكولونياليّة[*]

التّرجمة الأدبيّة من اللّغة العربيّة إلى اللّغة الفرنسيّة نموذجا

محور التّرجمة رافد ما بين ثقافيّ وما بين لغويّ

Problems of translation in the post-colonial context
Literary translation from Arabic into French as a model

د. ساميّة إدريس[†]

تاريخ الاستلام: 20/ 03/ 2021 تاريخ القبــول: 28 / 08/ 2021

ملخّص: لطالما كانت التّرجمة الأدبيّة مثار سجال وجدل بين رواد التّرجمة مّمارسة وتنظيرا، وعلى ما بينهم من فروقات، يمكن تصنيفهم حسب محورين فاعلين: المنتصرون للّغة الأصل، والمنتصرون للّغة الهدف. ومرد هذا الاختلاف بين الطرفين هو الدور الثقافي للترجمة، وأولويات التّرجمة الأدبيّة بين الاحتفاظ بخصوصيّة لغة وثقافة النّص الأصلي وبين التّركيز على المكونات الأدبيّة ذات الطابع الإنساني المشترك. يهدف هذا المقال إلى إبراز بعض الرّهانات التّي تطرحها التّرجمة في سياق ما بعد كولونيالي، على الصعيدين النّظري والممارساتي والتّأكيد على أهميّة نقد التّرجمات والاضطلاع بدور فاعل في ترجمة الأدب العربي إلى اللغات الأجنبيّة. وقد وقفنا عند الهوة القائمة بين الطروحات النّظريّة التّي تعلي من شأن التّرجمة الأدبيّة بوصفها رافدا ما بين لغوي وما بين ثقافي، وما بين الممارسات التّرجميّة التّي تخضع لعلاقات القوة والهيمنة الثقافيّة، وهذا ما تثبته دراسات كل من ريشار جاكمون وفاتحة الطايب حول التّرجمة الأدبيّة من اللّغة العربيّة إلى اللّغة الفرنسيّة.

كلمات مفتاحيّة: التّرجمة الأدبيّة؛ الثقافة؛ الدراسات التّرجميّة ما بعد الكولونياليّة؛ الهيمنة الثقافيّة؛ علاقات القوى.

Abstract: Literary translation has always been the subject of controversy among translation pioneers. Practitioners and theorists. Despite the differences between them, they can be classified according to two effective axes: those who support the original language, and those who support the target language. The reason for this difference between the two sides is the cultural role of translation, and the priorities of literary translation between preserving the specificity of the language and culture of the original text and focusing on the literary components of a common human nature. This article aims to highlight some of the problems that translation raises in a post-colonial context, on both the theoretical and the practical levels. We examined the gap between the theoretical propositions that assess literary translation as a tributary between linguistic and intercultural, and between translation practices that are subject to power relations and cultural hegemony. This is confirmed by the studies of Richard Jackmond and Fatiha Al-Tayeb on literary translation from Arabic into French.

[†] جامعة عبد الرحمن ميرة –بجاية، الجزائر، idris.samia@gmail.com (المؤلف المرسل).

Keywords: Literary translation; Culture; Postcolonial Translation Studies; Cultural hegemony; Relationships between forces.

1. مقدّمة: كانت التّرجمة الأدبيّة مثار السّجال والجدل عبر العصور بين رواد التّرجمة ممارسة وتنظيرا، فقد ذهب بعض الدارسين إلى إحلال التّرجمة الأدبيّة مكانة متميزة بين أنواع التّرجمات الأخرى، بالنّظر إلى طبيعة النّص الأدبي واللغة الأدبيّة الرّاسخة في ثقافتها، أما البعض الآخر، فقد اعتبرها ذات خصوصيّة نابعة من طبيعتها المجازيّة وعدد القراءات التّي يقترحها النّص الأدبي، دون أن يجعل لها مع ذلك مكانة مغايرة عن أنواع التّرجمات المتخصصة الأخرى.

ارتبطت نشأة نظريّة التّرجمة بعلم اللغة، وقبل ذلك سادت تصورات وآراء تحدد معايير التّرجمة الجيّدة، على اختلاف مذاهبها في الانتصار للأصل أم للهدف، وقد بقي هذا الاختلاف معتملا في نظريات التّرجمة الوصفيّة كذلك، وفي نظريات التّرجمة الأدبيّة، ومرد هذا الاختلاف هو الدور الثقافي للترجمة، فهل المطلوب من التّرجمة عموما، ومن التّرجمة الأدبيّة خصوصا، هو الاحتفاظ بخصوصيّة لغة وثقافة النّص الأصلي أم أن عليها التّركيز على المكونات الأدبيّة ذات الطابع الإنساني المشترك؟

يهدف المقال إلى إثارة بعض الإشكاليات المتعلقة بالتّرجمة الأدبيّة من منظور يعتبر التّرجمة ظاهرة ثقافيّة بينيّة، تتمظهر فيها علاقات القوة والهيمنة الثقافيّة، حيث حددنا في مرحلة أولى الإطار النّظري الذي انتقل بالتّرجمة إلى ميدان الدراسات الثقافيّة، وركزنا على دراسات التّرجمة ما بعد الكولونياليّة التّي درست التّرجمة ضمن علاقات القوة والهيمنة الثقافيّة. وفي مرحلة ثانيّة، عاينا بعض الدراسات التّطبيقيّة التّي اتخذت من حركة التّرجمة من العربيّة إلى الفرنسيّة مجالا لها، وذلك من خلال المقال القيم للباحث المتخصص ريشارد جاكمون المعنون " حركة التّرجمة بين اللغتين الفرنسيّة والعربيّة منذ ثمانينات القرن الماضي؛ انعكاس للعلاقات الثقافيّة"، والكتاب المتميز للباحثة فاتحة الطايب الموسوم "التّرجمة في زمن الآخر؛ ترجمات الرّوايّة المغربيّة إلى الفرنسيّة نموذجا".

2. إشكالات التّرجمة الأدبيّة: ارتبطت نشأة نظريّة التّرجمة بعلم اللغة، وقبل ذلك سادت تصورات وآراء تحدد معايير التّرجمة الجيّدة، على اختلاف مذاهبها في الانتصار للأصل أم للهدف، وقد بقي هذا الاختلاف معتملا في نظريات التّرجمة الوصفيّة كذلك، وفي نظريات التّرجمة الأدبيّة، ومرد هذا الاختلاف هو الدور الثقافي للترجمة، فهل المطلوب من التّرجمة عموما، ومن التّرجمة الأدبيّة خصوصا، هو الاحتفاظ بخصوصيّة لغة وثقافة النّص الأصلي أم أن عليها التّركيز على المكونات الأدبيّة ذات الطابع الإنساني المشترك؟

أعطى منظرو التّرجمة على تنوع مشاربهم إجابات كثيرة على هذا السّؤال، حيث تتجاذب نظريات التّرجمة الأدبيّة نزعتان هما النّزعة الجماليّة، ومن أهم روادها أمبرتو إيكو(Emberto ECO) الذي يمنح الأولويّة للغة الهدف، ويجعل التّفكير في التّرجمة شأنا خاصا بها، والنّزعة الشّعريّة، ومن أبرز من يمثلها أنطوان بيرمان (Antoine Berman). يجابه المترجم – حسب إيكو–صعوبات عديدة في إيجاد المكافئات والبدائل الدلاليّة والأسلوبيّة لما تطرحه اللغة الأصل أثناء نقل النّص إلى اللغة الهدف. ولحل هذه الصعوبات يطرح إيكو مفهوم "الأفق التّأويلي" بوصفه بعدا جوهريا في عمليّة التّرجمة الأدبيّة، إذ على المترجم أن يتفادى النّقل الحرفي من

المصدر، ليدخل في عمليّة تأويليّة يختار وفقها ضمن العوالم الممكنة التّي يحتملها نص أدبي معيّن. لا يعتدّ المترجم فقط بالقواعد اللغويّة، ولكنه يأخذ في حسبانه كذلك العناصر الثقافيّة بالمعنى الواسع للكلمة، فالتّرجمة لا تتم بين لغتين وإنما بين ثقافتين وبين موسوعتين. إن الانشغال الأساسي للمترجم –حسب إيكو–هو إحداث أثر مطابق للأثر الذي أراد النّص إحداثه عند القارئ في لغته الأصليّة، فالمطلوب هو إعادة إنتاج الأثر نفسه، وهنا يتدخّل تأويل المترجم للنص الأصلي، ولهذا تعتبر كل ترجمة جيّدة هي كذلك مساهمة نقديّة في فهم العمل الأدبي الذي تمت ترجمته (الحنصالي، 2017)[1].

من جهة أخرى نجد صدى للنزعة الشّعريّة في نظريّة بيرمان حول التّرجمة ففي كتابه "تجربة الغريب" L'épreuve de l'étranger (1984). يبيّن بيرمان، انطلاقا من ممارسات الشّعراء الألمان الرّومانسيين، أن أي ثقافة لا يمكن أن تبقى منطويّة على ذاتها، فهي بحاجة دائمة إلى ثقافات أخرى لتتشكّل، «فطبقا للمشروع الثقافي الرّومنسي الألماني، يرتكز رد الاعتبار للثقافة الوطنيّة على التّوجّه الكوسموبوليتي، مما يعني أن العلاقة المكثفة مع الآخر الأجنبي مثلت السّبيل الأنجع لتحديد خصوصيّة ثقافيّة ألمانيّة وبلوغ النّضج والانتشار» (الطايب، 2008، ص185)[2]. في هذا السّياق وبهذا المعنى يجب أن نفهم ضرورة عدم طمس "الأصلي" وعدم نسيان أننا أمام ترجمة.

يكتسي موقف أنطوان بيرمان مظهرا مزدوجا فلسفيّا (أخلاقيّا) وأدبيّا، حيث ينطلق من دراسة المنجز التّرجمي لفضح التّرجمات التّي تحافظ على تقليد إتنومركزي والمدعّمة ثقافيا وأدبيا (Ines Oseki-Dépré, 1999) [3]. إن جوهر التّرجمة حسب بيرمان هو «الانفتاح والحوار والهجانة واللاتمركز؛ فالتّرجمة تستدعي إقامة العلاقة بين الذات والآخر وإلا فقدت أساس وجودها» (بيرمان، 2002، ص21)[4]. بناء عليه، وجب رصد الإشكاليات التّي تطرحها التّرجمة في علاقتها بالثقافة على مستويات التّنظير والممارسة، وإخضاعها للنقد والتّحليل.

لقد بلور بيرمان نظريّة نقديّة وتحليليّة متكاملة حول التّرجمة الأدبيّة، تأخذ في الاعتبار العلاقة بين التّرجمة والثقافة، وهو بذلك يخرج عن إطار نظريّة التّرجمة بالمعنى الكلاسيكي، لينخرط كليّة في الإطار الأشمل للدراسات التّرجميّة المعاصرة.

1.2 **دراسات التّرجمة؛ التّرجمة والثّقافة:** تعود بواكير الدراسات التّرجميّة إلى استشراف ثيو هيرمانز (Theo Hermans) في كتابه " التّرجمة في النّظم" بالمسار المستقبلي لدراسات التّرجمة، حيث يقول: «يحتاج هذا المبحث بصفة عامة، ومذهب الدراسات الوصفيّة بصفة خاصة، وبصورة عاجلة إلى أن يأخذا في اعتبارهما التّطورات في بعض الحركات الفكريّة والاجتماعيّة القويّة في عصرنا. بما في ذلك دراسة قضايا الجنسين، وما بعد البنويّة، ودراسات ما بعد الاستعمار والدراسات الثقافيّة، والمباحث البينيّة الجديدة في العلوم الإنسانيّة»، وقد بدأ انعطاف دراسات التّرجمة نحو الثقافة مع صدور كتاب "التّرجمة والثقافة والتّاريخ" لأندري لوفيفر (André Lefèvre) وسوزان باسنيت (Susan Bassnett) في سنة 1990م، حيث تشير هذه الأخيرة إلى رغبة المؤلّفيْن في لفت الانتباه إلى التّغيرات التّي بدأت تحدث على البحث في الدراسات المتعلقة بالتّرجمة، والتّي أدّت إلى إعادة تحديد موضوع الدراسة، « فما يدرس اليوم إنما هو النّص المدرج ضمن سياقه من مصدر ومن دلالات ثقافيّة في لغة الهدف» (باسنيت، 2010)[5]، ولم يكونا الوحيدين في هذا المجال «إذ قبل ذلك بكثير

انطلق السّعي في سبيل توسيع موضوع الدراسات إلى ما أبعد من حدود الإطار المباشر، وذلك في نطاق العمل الذي اضطلعت به مجموعة (الأنساق المتعددة) التّي كان روادها إيتامار إيفن زوهار (1978)، جيديون توري (1978) وجيمس هولمز (1978). ففي ألمانيا وكندا والبرازيل قدمت حجج مماثلة لما قدمناه نحن، على الرّغم من أنها جاءت من منظورات مختلفة، بينما شرع المترجمون والباحثون في مجالات التّرجمة في إعادة تحديد مهمة المترجم في تاريخ الأدب، متعقّبين أصول التّرجمة ضمن سياقاتهم الثقافيّة الفرديّة ومتعمّقين بصورة أشمل في المتطلّبات الأيديولوجيّة للترجمة، وقوة العلاقات التّي تنشأ عندما يتم نقل نص من سياق إلى سياق آخر» (باسنيت، 2010)[6].

2.2 الدّراسات التّرجميّة ما بعد الكولونياليّة: تتّسم دراسات التّرجمة بتعدّد التّخصصات الذي تحتفي به، وقد تقاطعت مع «ذلك المجال البيْني السّريع التّطوّر، أي الدراسات الثّقافيّة»(باسنيت ولوفيفر، 2015)[7]، وقد أثمر الرّبط بين الاستعمار والتّرجمة نشوء محور الدراسات التّرجميّة ما بعد الكولونياليّة، حيث «ارتكزت التّنظيرات على الاتجاهات الثقافيّة في المرحلة ما بعد الكولونياليّة، إلى التّأكيد على أن التّرجمة كانت من الأدوات المهمة في تعزيز الهيمنة الإمبرياليّة، فإن تفاوتات القوة، وفق هذه الاتجاهات، هي التّي كانت ومازالتّ تتحكم فيما يترجم وفي الكيفيّة والأساليب التّي تخضع لها هذه الأنشطة الثقافيّة» (الصايغ، 2012)[8]. يطرح هذا النّوع من الدراسات الأسئلة المحرجة حول علاقات القوة اللامتكافئة بين الثقافات، والتّي تبرز عندما تتم التّرجمة بين لغتين وثقافتين، إحداهما مهيمنة ومستعمرة (بكسر الميم)، والأخرى تابعة ومستعمرة (بفتح الميم).

لعبت طروحات جاك دريدا (J. Derrida) دورا فاعلا في النّظريات ما بعد الكولونياليّة، إذ يرتكز المشروع الديريدي على دحض المركزيّة الثقافيّة الغربيّة، وتفكيك آليات الهيمنة، وقد أكّدت جاياتري سبيفاك (Gayatri Spivak) في قراءتها لدريدا على موقفه النّقدي والسّياسي من خلال ممارسته للتفكيك، «فالهدف من التّفكيك لا يقتصر على تعريّة الأيديولوجيا، بل طرح موقف سياسي أيضا. ففي الفصل الذي استشهدت به سبيفاك، يورد لنا دريدا مواقف من التّاريخ قامت فيها الأحداث بتفكيك الأنظمة الفلسفيّة التّي شرّعت للمشروع الإمبريالي الأوربي (75، 1976) وتستطرد سبيفاك في شرحها، موضحة تلازم نقد الوجود الثابت في مشروع الجراماتولوجيا، والنّقد المضاد لمزاعم الشّفافيّة، فالهدف من الجراماتولوجيا هو ممارسة الكتابة دون تحديد فواصل قاطعة تمايز بين الأنا والآخر، لتتجاوز الكتابة كافة أشكال التّفرقة، فالمشروع الدريري يعدّ مشروعا نقديا يبطل مساعي الهيمنة التّي تحاول الذات المتضخمة بالإثنيّة العرقيّة فرضها باختلاق تعريف شفافي يحدّد ماهيّة الآخر» (عبد المسيح، 1999)[9]. غذّت طروحات التّفكيكيّة تصورا مغايرا لعمليّة التّرجمة ضمن جدليّة الأنا والآخر، وضمن جدليّة ما هو قابل للترجمة وما تستحيل ترجمته، حيث تغدو «عمليّة التّرجمة عمليّة استشكاليّة تنهج استراتيجيّة لتوليد الفوارق تفتح اللغة على "خارجها"، وتفتح الغريب، بما هو غريب، على فضاء اللّغة المترجمة» (بنعبد العالي، 2014)[10]. لقي المشروع الدريدي رواجا لدى منظري ما بعد الكولونياليّة لأنه –حسب سبيفاك – يعترف بدور التّاريخ في تشكيل الذات ويدعو إلى مراجعة المثقف الغربي لمفاهيمه حول الآخر ومحاولات دمج ثقافته في الثقافة الغربيّة دون الاكتراث باختلافه. تدعو سبيفاك إلى الانتباه لحضور صوت الآخر فينا، من خلال التّفطن إلى فجوات النّص وتأويلها أوترجمتها، «التّعرف على احتوائنا للآخر يتطلب السّعي إلى التّرجمة التّبادليّة بين

المثقف الغربي ومنظر ما بعد الكولونياليّة، ومن ثم، تغدو قراءة الفجوات التّي تحتويها النّصوص فضاء يلتقي فيه الطرفان لإنتاج النّظريّة» (عبد المسيح، 1999)[11].

في نفس السّياق الذي يعالج طروحات الاختلاف الثقافي، يتناول النّاقد الهندي الأصل كذلك، هومي بابا (Homi Bhabha) التّرجمة على مستوى التّخوم بين الثقافات، وقد باتت التّرجمة في سياق ما بعد كولونيالي بفضل إسهامات منظريها، «رمزا لبينيّة الثقافة، وهجنة الهويات، والفضاء الحدّي أو الحدودي حيث تعاش الهويّة بوصفها مشروعا مستقبليا لا يركن إلى أوهام الثبات والأصل والتّراث النّقيّ» (ديب، 2003)[12]. يموقع بابا تفكيره في التّرجمة ضمن الوضع البيني الثقافي، فالتّرجمة بين الثقافات «تتطلب الممارسة الحيّة للغة، مما يترتب عليه تحريك المعنى أثناء تهجينه، فالتّجوال الدائم بين الثقافات يكشف عن سماتها التّبادليّة. ويذهب بابا في تحليله إلى اعتبار العلاقة بين المستعمر (بكسر الميم) والمستعمر (بفتح الميم) علاقة تبادليّة أيضا» (عبد المسيح، 1999)[13]. تحظى المساحات البينيّة التّي تخلقها الهجرة والنّفي والشّتات بميزة أساسيّة في فكر هومي بابا، فهي مساحات للاحتفاء بالهجنة بوصفها فعلا للمقاومة وترجمة تقضي على أوجه النّقاء الهوياتي المزعومة، كون الاختلاف يخترق كل الأطراف.

وجّهت انتقادات عدّة لنظريّة بابا على أساس نزوعها نحو تجاهل الفوارق الحقيقيّة بين الثقافات المستعمِرة والمهيمنة، والثقافات المستعمَرة والتّابعة، كما أن الإعلاء من شأن المهاجر والشّتاتي والمنفي واللاأقلّوي والاحتفاء بهجنتهم يأتي على حساب الشّعوب والأكثريات المظلومة المضطهدة، ويفضي إلى التّغاضي عن الثقافة الوطنيّة وأبنائها الذين يعيشون فيها ويقاومون فيها (ديب، 2003)[14].

من أبرز الدراسات التّي اهتمت بالتّرجمة في سياق ما بعد كولونيالي ما قام به دوغلاس روبنسن (Douglas Robinson) في دراسته القيّمة عن التّرجمة والإمبراطوريّة، حيث يفتتح كتابه بتعريف كل من التّرجمة والإمبراطوريّة بوصفهما كيانين غير متلازمين كما يبدو من الوهلة الأولى، وذلك تمهيدا للربط بينهما. يقول: «ولدت دراسة التّرجمة والإمبراطوريّة، بل ودراسة التّرجمة بوصفها إمبراطوريّة، في الفترة بين أواسط ثمانينيات القرن العشرين وأواخرها انطلاقا من إدراك أن التّرجمة قد كانت على الدوام قناة لا غنى عنها للفتح والاحتلال الإمبراطوريين» (روبنسون، 2005، ص24)[15]، ويضرب أمثلة من التّاريخ الاستعماري الإسباني والإنكليزي للقارة الأمريكيّة لعبت فيها التّرجمة دورا ملتبسا بين الوساطة بين الغزاة والسّكان الأصليين والتّمكين لهم، وتأسست كقناة للإمبراطوريّة ووسيلة لتوسيع الهيمنة الأوربيّة.

يشرح دوغلاس روبنسن مفهوم "مابعد الكولونياليّة" بوصفه جزءا من الدراسات الثقافيّة والنّقد الثقافي مؤكدا على الفعاليّة النّقديّة في هذا النّوع من الدراسات، «وباتكاء منظري الثقافة على فكرة "الهيمنة" عند غرامشي في وصفه للبنى السّياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والأيديولوجيّة والفكريّة السّائدة في المجتمع، فإنهم يستخدمون في العادة مناهضة الهيمنة في وصف أنفسهم وما يقدمونه من أعمال» (روبنسون، 2005)[16]. رغم النّقاش الدائر حول تحديد مجال الدراسات ما بعد الكولونياليّة بدقّة بين من يحصره في فترات ما بعد الاستقلال، ومن يوسعه إلى بدايّة عمليّة الاحتلال، ومن يفتح المجال على دراسة "علاقات القوة" بين جميع الثقافات والمجتمعات لتشمل التّاريخ الإنساني كله، إلا أن هذا النّوع من الدراسات يزدهر باستمرار ويستقطب الدارسين من كل أنحاء العالم.

3. التّرجمة الأدبيّة من اللغة العربيّة إلى اللغة الفرنسيّة

لا يتسع المقام هنا للوقوف عند جميع نظريات التّرجمة ما بعد الكولونياليّة لكن، يبدو مفيدا لنا بوجه خاص الإشارة إلى الإسهام القيّم الي قدّمه ريشار جاكمون (Richard Jacquemond) من خلال دراسته لحركة التّرجمة بين اللغتين الفرنسيّة والعربيّة، وقد اتّخذ من الحالة المصريّة نموذجا لتطوير ملاحظاته حول جملة العلاقات التّي تفرزها تباينات القوة على صعيد التّرجمة عامة والتّرجمة الأدبيّة خصوصا، و«وهو يقدّم في الواقع تخطيطا مزدوجا لتباينات القوة تلك، حيث يعكس التّخطيط الأول ما يدعوه جاكمون "اللحظة ما قبل الكولونياليّة" (...) في حين يعكس التّخطيط الثاني ما يدعوه جاكمون "اللحظة ما بعد الكولونياليّة"، او ما يمكن أن يدعى لحظة المقاومة ما بعد الكولونياليى أو لحظة تصفيّة الاستعمار» (روبنسون، 2005)[17].

ينطلق جاكمون من ملاحظة عدم التّكافؤ في عمليات التّرجمة بين اللغة الفرنسيّة واللغة العربيّة، والمكانة الهامشيّة التّي تحتلّها هذه الأخيرة من حيث التّرجمات لآدابها خاصة، رغم المدى الواسع للناطقين بها، «إن الدراسة المقارنة لحركة التّرجمة من اللغة الفرنسيّة إلى اللغة العربيّة، والعكس من العربيّة إلى الفرنسيّة، تقدّم صورة مثاليّة للتبادل الثقافي غير المتساوي بين لغة مركزيّة أو مهيمنة (الفرنسيّة)، ولغة تقع على الأطراف أو مهيمن عليها (العربيّة)» (جاكمون، 2010)[18]، وفي إطار أشمل يتحدّث عن "لغات الشّمال" و"لغات الجنوب"، وحتى حين تترجم اللغة المهيمنة نصوصا من الثقافة المهيمن عليها، «عادة ما ينظر إلى هذه النّصوص على أنها (أ) غامضة، غير مألوفة، غريبة، ولذلك (ب) باطنيّة، لا تهمّ سوى حفنة من المختصين في مجالاتها، ممن تكون ترجماتهم لهذه الأعمال (ج) حرفيّة على نحو مزعج ومتحذلق وصعبة على نحو فظ ومنفّر، أو (د) مثقلة بجهاز نقدي (مقدمة وشرح وتذييل) يفرض التّأويل الأكاديمي أو الاختصاصي على القارئ» (روبنسون، 2005، ص55)[19]. وبالإضافة إلى فرض تأويل الأعمال المترجمة من الثقافة المسيطر عليها، تسلك الثقافة المهيمنة سلوكا نمطيّا في اختيارها للترجمة تلك الأعمال التّي تلائم الصور النّمطيّة السّائدة، وهو ما تفطّن له كتاب العالم الثالث حيث أدركوا أن مقروئيتهم وشهرتهم ونجاحهم رهين بترجمة أعمالهم إلى الإنكليزيّة، او الفرنسيّة والإسپانيّة والألمانيّة بدرجة أقل. تدفع المكانة التّي تحتلها الإنكليزيّة أو الفرنسيّة بوصفها لغات وثقافات مهيمنة «الكاتب ما بعد الكولونيالي لأن يكتب على وجه التّحديد من اجل التّرجمة إلى واحدة من هاتين اللغتين، وهذ ما يفرض على الكتاب ما بعد الكولونياليين معرفة عميقة بالثقافة الأدبيّة الإنكليزيّة أو الفرنسيّة –خاصة ما لديها من صور منمّطة استشراقيّة أو مركزيّة أوربيّة عن ثقافة هؤلاء الكتاب– واستعدادا لإدراج كتاباتهم ضمن التّوقعات، والأعراف، والمعايير، والأجناس الإنكليزيّة والفرنسيّة» (روبنسون، 2005، ص57) [20].

لا شك أن التّرجمة ظاهرة ثقافيّة بامتياز، وحتى حين تتم التّرجمة إلى "لغات الشّعوب المتطورة" فإن هذا لا يعني حتما تضاؤل الهيمنة الثقافيّة أو خفوت المركزيّة الغربيّة –إن صح التّعبير– إذ تلاحظ الباحثة جنين عبوشي دلال تزايدا لافتا في ترجمة آداب العالم الثالث لكنها لا تعتبر ذلك دليلا على انفتاح القارئ الغربي بقدر ما هو تعبير عن مزيد من الخضوع من كتاب العالم الثالث. تقول: "والحق أن النّمو السّريع في ترجمة الأعمال الأدبيّة القادمة من العالم الثالث لا يعني بالضرورة أن القراء والكتاب الغربيين قد أطلقوا رحلات استكشاف ثقافيّة وجماليّة إلى عوالم أخرى، بل إن العكس هو الصحيح. فالسّياسة التّي يتم من خلالها اختيار أعمال أدبيّة من

العالم الثالث بهدف التّرجمة والتّرويج تشير إلى أن القارئ الغربي لا يتزحزح من مكانه، وأن العديد من كتاب العالم الثالث هم الذين يقومون بعمليّة العبور، والمؤشر الرّئيسي لعمليّة انجذاب الغرب نحو ذاته انجذابا نرجسيا هو ظاهرة برزت مؤخرا، وأعني ظاهرة الكتابة من أجل التّرجمة... وهي ظاهرة لا تقتصر على الرّوايّة العربيّة، وإنما تسري على تقاليد أدبيّة غير عربيّة أيضا (كالأدب الصيني مثلا)، وبناء عليه فإن عددا كبيرا من الرّوايات تكتب بالعربيّة، لكن الجمهور الذي تستهدفه إنما هو جمهور غربي في الأساس.." (جنين عبوشي، 1999، ص52)[21].

بقي أن نشير إلى دراسة عربيّة رائدة تمثّلت المنحى الثقافي ما بعد الكولونيالي في دراسة التّرجمة الأدبيّة، وهي كتاب "التّرجمة في زمن الآخر؛ ترجمات الرّوايّة المغربيّة إلى الفرنسيّة نموذجا" للكاتبة والباحثة المغربيّة فاتحة الطايب، والكتاب في الأصل أطروحة جامعيّة تقدّمت بها لنيل دكتوراه الدولة في الأدب المقارن. تنتقي الباحثة مدوّنة روائيّة مغربيّة من ثمانيّة نصوص قام بترجمتها مترجمون مغربيون وفرنسيون، وقد راعت في اختيارها للروايات تنوع مشاربها الأدبيّة، أما الخلفيّة النّظريّة والمنهج الذي اعتمدته دراستها فيتمثّل في نظريّة أنطوان بيرمان والتّأويليّة الحديثة كما عرضها في كتابه "من أجل نقد للترجمات الأدبيّة". وأهم ما يميّز طرح الكتاب استناده على مفهوم للترجمة يدرسها ضمن «تعالقات النّص المترجم المتشابكة مع السّياقين الثقافي والاجتماعي بمعناهما الواسع» (الطايب، 2010)[22].

توضح فاتحة الطايب الفكرة التّي تؤسس لدراستها كما يلي: «إن الأطروحة التّي نتبناها في هذه الدراسة، تميّز بين مسار الأدب في اللغة الواحدة، ومساره عندما ينتمي بفعل التّرجمة إلى لغتين وثقافتين مختلفتين: فإذا كان تطوّر الرّوايّة العربيّة في مجتمعات مستلبة وتابعة ومتخاذلة يؤكّد انفراد الأدب بمسار خاص يتأسس على منطق له استقلاليته النّسبيّة، فإن ترجمتها إلى اللغات الغربيّة تؤكّد في المقابل التّأثير الشّديد للمستوى المادّي للمجتمع على الأدب المترجم، هذا يعني أن مساحة استقلاليّة الأدب تضيق خارج حدود الثقافة واللغة الواحدة، فعلاقة القوّة التّي تربط المجتمع المغربي/ المرسل بالمجتمع الغربي/ المستقبل، تؤثّر بشدّة على مسار الرّوايّة المغربيّة المترجمة إلى الفرنسيّة» (الطايب، 2010، ص10)[23]. تدرس الباحثة مسار الأدب في اللغة الواحدة أو النّص المصدر من خلال دراستها لاستقبال هذه النّصوص ضمن النّسق العربي مركّزة على العلاقة الجدليّة بين متطلبات الإبداع وطموحه ووسائل التّلقي وأهدافه، لتنتقل في مرحلة ثانيّة إلى دراسة المترجمين، «فتشكيل صورة عن الذات القائمة بالتّرجمة يجب أن ينطلق، في نظرنا، من واقع تقديم هذه الذات للقارئ من خلال خطاب العتبات» (الطايب، 2010)[24]، لتنتقل بعدها إلى دراسة "أفق التّرجمة" وكذا قراءة المترجم للنص المصدر والتّي تبرز فيها ما أسماه بيرمان "المناطق النّصيّة الإشكاليّة"، وفي السّمات الأسلوبيّة التّي تضفي طابعا فرديا على كتابة ولغة الأصل، وفي الأخير تدرس تلقي النّص ضمن اللغة والثقافة الهدف من خلال وساطة الخطاب الصحفي.

ومن بين أهم النّتائج التّي توصلت إليها الدراسة بيان حجم التّأثير الكبير للايديولوجيا على المترجم الفرنسي مما يكشف أن « تفاؤل بعض الدارسين العرب بتغيير صورة الإنسان والثقافة العربييْن استنادا إلى ترجمة الإنتاج الرّوائي العربي، تفاؤل مبالغ فيه، فقوة الشّبكة العنكبوتيّة تصل إلى الدرجة التّي يتم فيها الاعتراف لهذا الإنتاج

بالتّميّز بصفته كتابة فنيّة، في نفس الخطاب الذي يعيد إنتاج صورة العربي الهمجي والمتعصّب والشّهواني (...) ومما يعقّد المسألة، توسل الذات العربيّة نفسها ناشرة ومترجمة، بنفس الصور أحيانا –عن قصد أوعن غير قصد– من أجل التّواصل مع الآخر، مع أنه كان بإمكانها (...) أن توظّف بذكاء انجذاب القارئ الغربي نحو الأجواء والفضاءات الشّرقيّة، فتركز على "المختلف" بشكل يرفع من قيمة الذات ولا ينتقص منها» (الطايب، 2010)[25].

4. خاتمة: انطلق المقال من إثارة إشكاليات التّرجمة الأدبيّة من منظور يعتبر التّرجمة ظاهرة ثقافيّة بينيّة، تنطبع فيها علاقة الذات بالأخر، وقد حددنا الإطار النّظري من خلال الإشارة إلى التّقاطب الحاصل بين النّزعة الجماليّة في نظريّة التّرجمة، وهي التّي تتخذ موقفا صريحا لصالح اللغة الهدف، وبين النّزعة الشّعريّة التّي تنشغل كثيرا بالانفتاح على الآخر والحفاظ على الخصوصيّة اللغويّة والثقافيّة للنص المصدر باعتبار أن هذا المسلك هو السّبيل الأمثل لإثراء اللغة الهدف وتطعيمها بعناصر جديدة. ووصلنا ذلك بالحديث عن التّوسعات الحاصلة في نظريّة التّرجمة حين انكبت على دراسة التّرجمة بوصفها ظاهرة ثقافيّة، وما أسفرت عنه الدراسات التّرجميّة ما بعد الكولونياليّة حين درست التّرجمة ضمن علاقات القوة والهيمنة الثّقافيّة.

بناء عليه، وقفنا على عينة من الدراسات التّي اتخذت من ترجمة الأدب من اللغة العربيّة إلى اللغة الفرنسيّة للوقوف على الهوة القائمة بين الطروحات النّظريّة التّي تعلي من شأن التّرجمة الأدبيّة بوصفها رافدا ما بين لغوي وما بين ثقافي، وما بين الممارسات التّرجميّة الفعليّة التّي تخضع لعلاقات القوة والهيمنة الثّقافيّة؛ فقد انطلق ريشارد جاكمون من إثبات عدم التّكافؤ في عمليات التّرجمة بين اللغة الفرنسيّة واللغة العربيّة، والمكانة الهامشيّة التّي تحتلّها هذه الأخيرة من حيث التّرجمات لآدابها خاصة، رغم المدى الواسع للناطقين بها، وحتى حين تترجم اللغة المهيمنة نصوصا من الثقافة المهيمن عليها، فهي تسلك سلوكا نمطيّا في اختيارها للترجمة تلك الأعمال التّي تلائم الصور النّمطيّة السّائدة، وتفرض تأويلها عليها، وقد تفطّن كتاب العالم الثالث لهذا الأمر حيث أدركوا أن مقروئيتهم وشهرتهم ونجاحهم رهين بترجمة أعمالهم إلى اللغات المهيمنة، لذا راح بعضهم يكتب على وجه التّحديد من اجل التّرجمة، مستغلا معرفته العميقة بالثقافة الأدبيّة الإنكليزيّة أو الفرنسيّة وما لديها من صور منمّطة استشراقيّة أو مركزيّة أوربيّة عن ثقافة هؤلاء الكتاب. وقد أشارت الباحثة جنين عبوشي دلال إلى هذه الظاهرة التّي تعتبرها تعبيرا عن مزيد من الخضوع من كتاب العالم الثالث للثقافات المهيمنة. تتوصل الباحثة فاتحة الطايب إلى نتائج مماثلة في دراستها المفصلة لنماذج من ترجمات الرّوايّة المغربيّة المكتوبة باللغة العربيّة إلى اللغة الفرنسيّة، معتبرة أن ازدياد عدد التّرجمات للروايّة العربيّة لا يعني تغير الأوضاع لأن هذه الرّوايات تحمل نفس الخطاب الذي يعيد إنتاج صورة العربي الهمجي والمتعصّب والشّهواني.

في الختام، نودّ أن نؤكد على أهميّة هذا النّوع من المقاربات، وخطورة الرّهانات التّي تكشف عنها، ولفت أنظار الباحثين إلى مجال خصب للدراسة والبحث في السّياق العربي الإسلامي، مجال يكاد يكون بكرا رغم تاريخ التّرجمة الطويل من وإلى اللغة العربيّة قديما وحديثا.

6. قائمة المراجع:

[1] أنظر سعيد الحنصالي (2017): *"الترجمة والسياق؛ نترجم أم نؤول؟"*، **رباط الكتب**، على الرابط:
ribatalkoutoub.com/?p=2734 (consulté le 16/12/2019)

[2] فاتحة الطايب: *"الأدب المقارن والنقد الثقافي؛ دراسات الترجمة"*، **مجلة آفاق**، العدد 76، يونيو 2008، ص185.

[3] Voir Ines Oseki-Dépré : **Theories et pratiques de la traduction littéraire**, (Paris : Armand Colin ,1999), pp 78 et 80.

[4] أنطوان بيرمان: *"بيان الترجمة"*، ترجمة: عز الدين الخطابي، **مجلة نوافذ**، العدد 22، ديسمبر 2002، ص21.

[5]سوزان باسنيت: *"الثقافة والترجمة"*، ترجمة: مرزاق بقطاش، **مجلة الملتقى**، العدد 21، يناير 2010، ص17.

[6] باسنيت، 2010، ص18.

[7] سوزان باسنيت، أندري لوفيفر: **بناء الثقافات: مقالات في الترجمة الأدبية**، ترجمة: محمد عناني، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، 2015)، ص235.

[8]فايز الصياغ: *"إشكالية الهوية وثنائية اللغة والترجمة في السياق العربي المعاصر"*، **مجلة تبين** للدراسات الفكرية والثقافية، المجلد1، العدد1، صيف 2012، ص123.

[9] ماري تيريز عبد المسيح: *"الترجمة لإنماء خطاب عابر للثقافات"*، **مجلة نزوى**، العدد 20، أكتوبر 1999، ص81.

[10] عبد السلام بنعبد العالي: "الترجمة وإشكالية الآخر"، **الترجمة وإشكالية المثاقفة**، إعداد وتقديم: مجاب الإمام، محمد عبد العزيز، (قطر: منشورات منتدى العلاقات العربية والدولية، 2014)، ص273.

[11] ماري تيريز عبد المسيح: *"الترجمة لإنماء خطاب عابر للثقافات"*، ص81.

[12] ثائر ديب: *"الترجمة؛ دراساتها ونظرياتها، كتب، مجلات، شخصيات"*، **مجلة المعرفة**، العدد 480، سبتمبر 2003، ص250.

[13] ماري تيريز عبد المسيح: *"الترجمة لإنماء خطاب عابر للثقافات"*، ص82.

[14] أنظر ثائر ديب: *"الترجمة عبر تباينات القوة؛ اللغة والهوية في عالم الترجمة اللامتكافئة"*، **الترجمة وإشكالات المثاقفة**، إعداد وتقديم: مجاب الإمام، محمد عبد العزيز، (قطر: منشورات منتدى العلاقات العربية والدولية، 2014)، ص297.

[15] دوغلاس روبنسون: **الترجمة والإمبراطورية؛ نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية**، ترجمة: ثائر ديب، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة،2005)، ص24.

[16] روبنسون، 2005، ص27.

[17] روبنسون، 2005، ص71.

[18] ريشارد جاكمون: "*حركة الترجمة بين اللغتين الفرنسية والعربية منذ ثمانينات القرن الماضي؛ انعكاس للعلاقات الثقافية*"، ترجمة: محمد يحياتن، **مجلة الملتقى**، عدد 21، يناير 2010، ص85.

[19] دوغلاس روبنسون: **الترجمة والإمبراطورية؛ نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية**، ترجمة: ثائر ديب، ص55.

[20] روبنسون، 2005، ص57.

[21] جنين عبوشي دلال: *"الثقافة العالمية/المعولمة وسياسات الترجمة"*، **مجلة الآداب**، العدد 7/8، 1999، ص52.

[22] فاتحة الطايب: **الترجمة في زمن الآخر؛ ترجمات الرواية المغربية إلى الفرنسية نموذجا**، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، 2010)، ص12.

[23] الطايب، 2010، ص10.

[24] الطايب، 2010، ص17.

[25] الطايب، 2010، ص410.